

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ

الاستدلالية التالية من قِبَلِ الْأَشَاعِرَةِ

لقد أسلفنا بأنَّ الأشاعرةَ البائِسةَ لم تُفكِّكْ - في أدلتِها على الكلامِ النفسيِّ - بأنَّ بعضها تُثبِتُ الكلامَ النفسيَّ لله فحسبَ وقِطْعاً منها تُمَثِّلُ الكلامَ النفسيَّ للإنسانَ فحسبَ، فبالتالي لم نَعُثِرْ على دليلٍ آخر يُسَجِّلُ كليهما إلا دليلَهُمَ الماضي الذي قد حَذَفَ الإرادةَ في الأمرِ الامتحانيِّ والإعْذارِيِّ فإنَّ هذا النمطَ من الأمرِ يَشْتَرِكُ بينَ الله و الإنسانِ.

و الآن سنستعرضُ دليلَهُمَ التالي:

لقد تشبَّهوا بالآيةِ التالية: - لِيُثْبِتُوا الكلامَ النفسيَّ لله تعالى - «وكَلَّمَ اللهُ موسى تكليماً» [1] ثُمَّ بَنَوْا الاستدلالَ على أربعِ مقدماتٍ قادمة:

1. إنَّ التكلَّمَ من أوصافِ الله تعالى بلا ارتياب.

2. إنَّ الأوصافَ الإلهيَّةَ كُلَّها تُعدُّ قديمةً كذاتِهِ تعالى إذ لو أَصْبَحَتْ حادثَةٌ لأُفْضِيَ إلى حلولِ الحادثِ في القديمِ بينما لا تَفْعُ ذاته القديمةُ محلّاً للحوادثِ وإلا لَتَقَوَّمَ القديمُ بالحوادثِ فاستدعى الحادثُ التغييرَ في الذاتِ القديمِ.

3. إنَّ الكلامَ النفسيَّ مدلولٌ للكلامِ اللفظيِّ وحيث إنَّ اللفظَ من جملةِ الحوادثِ - إذ يَرَكَّبُ من الحروفِ و المُركَّبِ - فيُعدُّ تدريجيَّ الحدوثِ بخلافِ الكلامِ النفسيِّ تماماً.

4. إنَّ الكلامَ النفسيَّ حيثُ يُعدُّ صفةً مكنونةً و قديمةً في النفسِ الإلهيِّ، فسيُخْتَلَفُ عن سنخِ الكلامِ اللفظيِّ - ومن غيرِ مقولةِ اللفظِ و العلمِ و الإرادة - ولهذا لا يُعدُّ حادثاً أبداً، فبالتالي، نَتَخَذُهُ عنصراً مَخْفِياً في النفسِ.

ونتصدى لتفكيرِ الأشعريِّ المُتَذَبِّذِ هنا:

1. أولاً: بأنَّه قد استدلَّ على استحالةِ الكلامِ اللفظيِّ - نظراً إلى حدوثِهِ و الحادثِ لا يَلُوجُ في القديمِ - بينما هذه الاستدلاليةُ بالآيةِ الكريمةِ لم تُثبِتْ لنا تواجُدَ عنصرٍ ثالثٍ في النفسِ يُسمَّى بالكلامِ النفسيِّ، نعم قد تجشَّم في إثباتِ حدوثِ الكلامِ اللفظيِّ و استحالةِ حلولِ الحادثِ في الذاتِ القديمِ الإلهيِّ، فظهورُ الآيةِ هو أنَّ الله قد اتَّصَفَ بصفةِ التكلَّمَ و أين هي من الكلامِ النفسيِّ.

2. ثانياً: إنَّ الآيةَ قد صرَّحت بأنَّ الله تعالى قد كَلَّمَ موسى عليه السلام، فلو تَسَجَّلَ - لدى الأشعريِّ - وجودُ الكلامِ النفسيِّ لأصبحَ النبيُّ موسى أيضاً من قَدَمِ الله حتماً، إذ مُتَعَلِّقُ التكلَّمَ الإلهيِّ القديمِ هو نفسِ النبيِّ موسى لأنَّه الطرفُ المقابلُ للتكلَّمَ الإلهيِّ - كَالْخَالِقَةِ و الرَازِقَةِ - فَيُحْتَمُّ أَنْ نُسَجِّلَ قَدَمَ النبيِّ أيضاً كي يَتَحَقَّقَ الكلامُ النفسيُّ، بينما لا يَخْضَعُ له الأشعريُّ المُتَطَفِّلُ نهائياً.

3. ثالثاً: إنَّ إعرابَ فقرة "كَلَّمَ تَكْلِماً" هو المفعول المطلق النوعي - لا التأكيدي- ولهذا لا يَتِمَّائِلُ الكلامُ الإلهيُّ مع كلامِ البشرِ على الإطلاقِ فإنَّ نمطَ تَكْلِمْ الله قد تحدَّدَ في الآيةِ التالية: و ما كان لبشرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وحيًا أو من وراء حجابٍ أو يُرْسِلَ رَسولاً فيُوحِي بِإِذْنِهِ ما يَشَاء. فلو أصبحَ كلامُهُ تعالى نفسياً لما تَلَأَمَ مع المفعولِ المطلقِ النوعي، إذ من المُبَرَمِ أن تَكَلَّمَ الباري تعالى يَنفَوْتُ نوعُهُ مع جوهرَةِ تَكَلَّمَ البشر، فعملِيَّةُ التَكَلَّمَ قد اسْتَحْدَثَتْ بلونَ خاصٍّ مع موسى عليه السلام وهذا لا يَتَسَقُّ مع الكلامِ النفسيِّ القديم، فرغمَ أنَّ الكلامَ اللفظيَّ يُعدُّ دالًّا على الكلامِ النفسيِّ و لكنَّهُ لا يُسَجِّلُ أصلَ وجودِ الكلامِ النفسيِّ فضلاً عن قَدَمِهِ.

الدليل التالي للأشاعرة

و هنا الأشاعرةُ المُتَزَعِّعَةُ قد كَفَّتْ أَيْدِيهَا عن الآيةِ الكريمةِ فاستدلَّت بوجودِها بأنَّا نُدْعِي أن الله قد اتَّصَفَ بِسِمَةِ التَكَلَّمَ حتماً وحيث إنَّ ذاته قديمٌ فمُوصَفَاتُهُ تُعدُّ قديمةً أيضاً لأنَّها تتَقَوَّمُ بِذَاتِهِ القديم فلا يَقَعُ ذاتُهُ موطناً للحوادثِ عقلاً، فبالتالي، قد افترَضَتِ التَكَلَّمَ الإلهيَّ صفةً نفسيةً قديمةً.

ولكن نَاجِجُ الأشعريِّ هنا:

أولاً: إنَّه قد فشَلَ في إثباتِ قَدَمِ "التَكَلَّمَ الإلهي" كصفةٍ نفسيةٍ باطنيةٍ، بل يبدو نَبَرًا بأنَّ الأوصافَ الإلهيةَ لا تُعدُّ كُلُّها قديمةً ذاتيةً بل وفقاً للرواياتِ و التحليلِ العقليِّ نجدُ أنَّه سبحانه قد حظيَ بأوصافٍ فعليةٍ حادثةٍ، فلا نَضْطَرُّ إلى تسجيلِ قَدَمِ "صفةِ التَكَلَّمَ الإلهي" نهائياً.

ثانياً: قد أجابَ المتكلمونَ -رغمَ أن الفلاسفةَ لا تَخْضَعُ لهذا التفكير- بأن عبارة "الله متكلم" لا يَعْنِي التَكَلَّمَ الاشتقاقيَّ المصطلحَ إذ ليست مبدئُهُ حديثاً بل إنَّه مصدرٌ جعليٌّ نظير اللَّابِنِ و التامرِ و البَقَالِ و... حيث إنَّها قد اشْتُقَّتْ من مبدئيٍّ جامدٍ تماماً بمعنى باعِ اللبنِ و التمرِ و البَقَلِ، فذلك التَكَلَّمَ قد اتَّخَذَ من معنى جامدٍ، وعلى ضوئه، إنَّ الله تعالى يوجدُ الكلامَ بفعله الخارجيِّ، فلا يُعدُّ وصفاً قديماً اشتقاقياً لكي يَسْتَشْكِلَ الأشعريُّ بأنَّه وصفٌ قديمٌ مشتقٌّ من الكلامِ [2] إذن فتكليمُ الله يَعْنِي إيجادُ الكلماتِ للمُستمعِ وفقاً لآيةِ "ماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا..." فحتى الآن قد انهزمَ الأشعريُّ.

وامتداداً لحقيقةِ الكلامِ، نَسْتَدَكِّرُ اتِّجَاهَ الفلاسفةِ كالسيدِّ الخمينيِّ، حيث يُصَرِّحُونَ بأنَّ الألفاظَ قد وضعتُ للمعاني العامةِ فيأتي المتكلمُ و يُظهِرُ عَمَّا ما في الضميرِ عبرَ الكلماتِ، إذن فالتكلمُ هو إظهارُ مطوياتِ البواطنِ، فحيث إنَّ المتكلمَ قد أَبْدَى عن إرادةٍ نفسه أو عن واقعةٍ خارجيةٍ عبرَ الكلماتِ فأصبحَ متكليماً إذ البشرُ لا يَمْتَلِكُ مناصاً لإبداءِ الضميرِ إلا عن طريقِ الحروفِ و الأصواتِ و... ، ثم توسَّعَ معنى "الكلامُ" بمعناه العامِ فَطَبَّقْنَاهُ على ذاتِ الله تعالى أيضاً نظراً للحديثِ القدسيِّ: كنتُ كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أعرف... .

ولكن وفقاً لهذا التفسيرِ من الكلامِ، سَيَتَّحَدُّ سَنخُ التَكَلَّمَ البشريِّ عن الله سبحانه وكذا سَيَنْدَمِجُ التَكَلَّمَ مع سائرِ الصفاتِ الأخرى كالقدرةِ الإلهيةِ و الرازقيةِ و... ، وقد التَزَمَتِ به الفلاسفةُ.

الاستدلال التالي للأشعريِّ

لقد أثبتَ الأشعريُّ المَعْتُوهُ التَغَايِرَ ما بين الكلامِ النفسيِّ و بين العلمِ في الإخبارِ و الإرادةِ في الإنشاءِ، مستدلاً بأنَّ الجَمَلَ الخبريةَ تَمْتَعُ بثلاثِ افتراضاتٍ: فإما أن يُعْلَمَ بالنسبةِ الحكميةِ الخبريةِ و إما أن يُشَكَّ وإما أن يُعْلَمَ بالخلافِ فرغمَ مخالفةِ الخبرِ مع الواقعِ إلا أنا المخبرُ يُنبأُ بذلك أيضاً، ثم استنتجَ بأنَّ الإخبارَ بأمرٍ مشكوكٍ أو بحادثةٍ مضادةٍ للواقعِ يدلُّ على أنَّ الخبرَ يَفُوقُ العلمَ إذ كيفَ يَشَكُّ المرءُ أو يُعْلَمُ الخلافَ و رغمَ ذلك يُنبأُ بهما، وهذا يَكْشِفُ عن وجودِ عنصرٍ ثالثٍ يُغَايِرُ العلمَ و الإرادةَ ولا مُناقشةَ في التَّسميةِ.

و نَطْمِسُ عَلَيْهِ بَأْنَهُ لَوْ أَرَادَ إِثْبَاتَ أَنَّ الْكَلَامَ النَّفْسِيَّ يُغَايِرُ حَكْمَ النَّفْسِ بِالنِّسْبَةِ الْحَكْمِيَّةِ فَهُوَ غَيْرُ الْعِلْمِ فَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ لِأَنَّا نَعْتَقُدُ بِأَنَّ
الْإِذْعَانَ بِالنِّسْبَةِ الْحَكْمِيَّةِ هُوَ الْعِلْمُ لَا مُحَضَّ حَكْمَ النَّفْسِ، وَ لَوْ أَرَادَ إِثْبَاتَ أَنَّ نَفْسَ الْعِلْمِ هُوَ غَيْرُ حَكْمِ النَّفْسِ بِهَذَا الْعِلْمِ، فَإِنَّا قَابِلُوهُ
أَيْضاً وَفَقاً لِلْمَحَقِّقِي الرِّشْتِيِّ وَالْأَصْفَهَانِيِّ إِلَّا أَنَّ الْمَحَقِّقَ الْأَصْفَهَانِيَّ قَدْ اعْتَرَضَهُمْ بِأَنَّ هَذَا الْحَكْمَ النَّفْسَانِيَّ يُعَدُّ مِنْ أَفْعَالِ النَّفْسِ
الْحَادِثَةِ لَا مِنَ الصِّفَاتِ وَ الْكَيْفِيَّاتِ النَّفْسَانِيَّةِ؛ بَيْنَمَا يَوَدُّ الْأَشْعَرِيُّ إِثْبَاتَ قِدَمِ صِفَةِ التَّكَلُّمِ وَقَدْ خَابَ فِي تَسْجِيلِ الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ أَخِيراً
بَلْ قَدْ نَجَحَتْ فِكْرَةُ الْمَعْتَزَلَةِ وَالْإِمَامِيَّةِ تَمَاماً. [3]

[1] سورة النساء، الآية 164.

[2] وَ قَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ السَّيِّدُ الْخَوَّيُّ أَيْضاً قَائِلاً: فَلَانِ الْمُتَكَلِّمِ لَيْسَ مُشْتَقّاً اصْطِلَاحِيّاً. لِفَرْضِ عَدَمِ الْمَبْدَأِ لَهُ، بَلْ هُوَ نَظِيرُ هَيْئَةِ
الْإِنِّ، وَ التَّامِرِ، وَ الْمُتَقَمِّصِ، وَ الْمُتَنَعِّلِ، وَ الْبِقَالِ
وَ مَا شَاكَلَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَبْدَأَ فِيهَا مِنْ أَسْمَاءِ الْأَعْيَانِ، وَ الذَّوَاتِ، وَ هُوَ اللَّبَنِ، وَ التَّمْرِ، وَ الْقَمِيصِ، وَ النَّعْلِ، وَ الْبِقْلِ، وَ لَكِنْ بِاعْتِبَارِ
اتِّخَاذِ الشَّخْصِ هَذِهِ الْأُمُورَ حِرْفَةً وَ شَغْلاً وَ لَازِماً لَهُ صَارَتْ مُرَبَّوطةً بِهِ، وَ لِأَجْلِ هَذَا الْإِرْتِبَاطِ صَحَّ إِطْلَاقُ هَذِهِ الْهَيْئَاتِ عَلَيْهِ. نَعَمْ
أَنَّهَا مُشْتَقَّاتٌ جَعَلِيَّةٌ بِاعْتِبَارِ جَعَلِيَّةِ مَبَادِئِهَا وَ مَصَادِرِهَا. وَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكَلِمَ لَيْسَ مُصَدِّراً لِلْمُتَكَلِّمِ، لِفَرْضِ أَنَّ مَعْنَاهُ الْجَرَحُ لَا
الْكَلَامَ، وَ كَلِمَ لَيْسَ فِعْلاً ثَلَاثِيّاً مُجَرَّداً لَهُ، لِيَزَادَ عَلَيْهِ حَرْفٌ فَيَصْبِحُ مُزِيداً فِيهِ. وَ عَلَيْهِ فِطْبِيْعَةُ الْحَالِ يَكُونُ التَّكَلُّمُ مُصَدِّراً جَعَلِيّاً، وَ
الْكَلَامُ اسْمُ مُصَدَّرٍ كَذَلِكَ. مُحَاضِرَاتُ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ (طَبْعُ دَارِ الْهَادِي)، ج2، ص: 29
[3] وَ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، أَوَّلًا: إِنَّ هَذَا الْإِذْعَانَ بِالنِّسْبَةِ إِذَا مِنْ أَفْعَالِ النَّفْسِ فَيَصْبِحُ حَادِثاً وَلَكِنْ الْأَشَاعِرَةُ تَنْكَرُهُ وَ إِذَا مِنْ الْكَيْفِيَّاتِ
النَّفْسَانِيَّةِ فَتَتَحَقَّقُ الصُّورَةُ فِي النَّفْسِ سِوَاءَ كَانَ شَكَاً أَوْ مَخَالُفاً لِلْوَاقِعِ فَإِنَّهُ لَيْسَ عِنَصِراً ثَالِثاً بَلْ هُوَ الْعِلْمُ بِالْكَذِبِ وَ الْعِلْمُ بِالشَّكِّ.
وَثَانِيّاً: بِأَنَّ نَفْسَ الشَّكِّ وَ نَفْسَ الْعِلْمِ بِالْخِلَافِ قَدْ تَحَقَّقَا فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ فَحِينَئِذٍ يُنْبَأُ عَنِ الْمَشْكُوكِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِالْمَشْكُوكِ
ثُمَّ أَنْبَأَ بِهِ، وَكَذَا حِينَئِذٍ يُنْبَأُ بِخِلَافِ الْوَاقِعِ فَإِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ قَدْ عُلِمَ الْكَذِبُ فَأَنْبَأَ بِهِ فَيَعِدُّ أَكْذُوبَةً خَارِجاً، إِذَنْ لَمْ يَتَسَجَّلْ أَيُّ عِنَصَرٍ
ثَالِثٍ كَالْكَلَامِ النَّفْسِيِّ، بَلْ هُوَ الْعِلْمُ فَحَسَبَ، وَ إِنَّمَا التَّغْيِيرَاتُ فَبِسَبَبِ الْمَعْلُومِ أَعْنِي مُتَعَلِّقُ الْعِلْمِ، لَيْسَ أَكْثَرُ، وَثَالِثاً: أَلَمْ يَفْتَرِضِ
الْأَشْعَرِيُّ الْأَغْبَرُ أَنَّ الْكَلَامَ النَّفْسِيَّ يَقَعُ مَدْلُولاً لِلْكَلَامِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَمَا أُسَاسُ الشَّكِّ وَ خِلَافُ الْوَاقِعِ لَيْسَ أَمراً قَدِماً رَاسِخاً فِي النَّفْسِ
لَكِي يُنْبَأَ عَنْهُ الْمُتَكَلِّمُ، إِذَنْ لَا يَحِقُّ لِلْأَشْعَرِيِّ أَنْ يَسْتَشْهَدَ بِأَنَّ الْإِخْبَارَ يَغَايِرُ الْعِلْمَ إِذَ الشَّكُّ وَ... لَا يُدَلُّ عَلَيْهِ وَ إِذَا دُلَّ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ
نَمَطِ الْعِلْمِ بِالْمُتَعَلِّقِ أَيُّ إِخْبَارٍ بِالشَّكِّ أَوْ إِخْبَارٍ بِالْإِهْمَالِ أَوْ إِخْبَارٍ بِالْهَزْلِ أَوْ إِخْبَارٍ بِخِلَافِ الْوَاقِعِ وَ هَكَذَا.
وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ التُّرَاهَاتِ قَدْ انْبَثَقَتْ مِنَ التَّبَاعَدِ عَنِ مَكْتَبَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَتَخَيَّلُوا الْعِلْمَ فِي عَقُولِهِمُ النَّاَقِصَةِ بَيْنَمَا قَدْ
اسْتَغْرَقُوا أَوْقَاتِ الْعُلَمَاءِ بِأَبَاطِيلِهِمُ الَّتِي لَا يَفْقَهُونَهَا فَأَمَدَّ اللَّهُ ضَلَالَتَهُمْ وَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ، وَ نَعَمْ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ
الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ أَعْدَانَنَا مِنَ الْحَمَقَى.